الفصل السابع

تأثير الوراثة في الغرائز والعادات

عرفت أن الغريزة قوة فطرية تصدر عنها أفعال قهرية لغاية محدودة.

أما العادة فإنها مرنة، تحدث من تكرار ما سبق للعقل مزاولته من الأعمال، بحال تجعل عرضها آليا، بدون الاستعانة بالعقل. فبين الغريزة والعادة شبه فى الغاية، وتباين فى الوساطة.

وقد اتفق العلماء على أن الغرائز تورث. واختلفوا فى وراثة العادات، ففريق أجازها، وفريق منعها، وكلاهما يدلى بالحجة.

فمجيزو الوراثة يستدلون بأمر لا يعتد به إلا علماء الآثار الحيوية، وهو ما يشاهدونه من التحسين التدريجى فى البقايا المتحجرة من النبات والحيوان. قالوا: لم يجئ هذا التحسين عرضا، وإنما أوجدته الممارسة والتمرين. فالحيوان إذا استعمل عضوا فى قضاء مصالحه فإنه يقوى، وتنتقل حاله بالوراثة من الأصل إلى الفرع، واستدلوا على ذلك بانتقال المرض بالوراثة من الأب إلى ابنه.

ومعارضو الوراثة – وهم النشوئيون – يعتقدون أن هذا التغير إنما أتى بتأثير المصادفات، وهى ليس لها نظام محدود، فقد تظهر فى الطول أو العرض أو اللون أو القوة، والفطرة تختار الأصلح، والحياة جهاد وكفاح، والجسم لا يحيا إلا إذا تغلب على الطوارئ حتى إذا ضعف عن احتمالها وَهَنَ وقُضى عليه. بهذا الرأى

فسر داروين ومشايعوه مذهب النشوء والارتقاء.

ثم دحضوا أدلة مجيزى الوراثة أولا بأن العيوب الخلقية والعمى والجهل كلها عوارض ولا ينتقل منها شيء بالوراثة . وعادة بتر أذناب الأغنام شائعة بين الرعاة ، ولم يروا فى نتاجها تشويها مثله. وعادة لِبس الصينيات الأحذية الحديدية لتصغير أقدامهن نشأت منذ أجيال ، وليس لعامل الوراثة فيها من تأثير. وعادة الختان يشترك فيها الوالدان ولا يظهر لها فى الأولاد أثر. أما انتقال الأمراض من الآباء إلى الأبناء فسببه العدوى لا الوراثة.

ثانيا: حقق البحث أن الخلايا التى تفرز الحيوانات المنوية تخالف خلايا الجسم ، وهى مع ذلك منفصلة عنها إلا فيما يتعلق بالغذاء . فالعمل الذى يؤثر وقعه فى الجسم، ويحدث كمالا أو نقصا ، لا شأن له مع المادة المفروزة لحفظ النوع. والفطرة وحدها تسلك بالنوع سبيل الصلاح، وسُنن تنازع البقاء تقضى بالحياة أو بالفناء إذا وجدت أو عدمت الأسباب

وقديما ظن بعض الطبيعيين أن العضو يحدث الوظيفة ، فاليد تكتب ، واللسان ينطق ، والعين تبصر. ورأى غيرهم عكس هذه القضية إذا كان فى العضو استعداد مخصوص للعمل ، فاليد إذا تعطلت عن العمل تشنجت ، ولا يكون علاجها إلا بالحركة ، واللسان إذا صمت خرس، ولا يبرئه إلا التمرين ، والمرأة المرضع يضخم ثدياها ، ومن تهملهما لا يكادا يظهران عندها، هذان رأيان لا يخلو كلاهما من تطرف. وصفوة القول أن العضو ووظيفته يؤثر أحدهما فى الآخر ، إذ العضو آلة العمل ، والعمل يرهف من حده ، ويزيد تركيبة متانة بنسبة ما يعانيه من حسن الأداء والمثابرة.

وقد تصدى جلادستون لمذهب النشوء والارتقاء فنقده حيث قال : إنى أحاول أن أرى الرقى الفكرى الذى حازه الخلف ، وقصر عنه السلف ، تصديقا لعقيدة النشوء ، فلا أكاد أجد له أثرا. لا يدور بخلدى أننا أقوى أجساما من أسلافنا أبناء

القرون الوسطى ، بل أعتقد أننا على الضد من ذلك ، فإذا وازنا نفوسنا بأسلافنا أبناء القرن السادس عشر مثلا نجد أنهم فاقونا فى الجسم والعقل ، ويرشد البحث بالقياس إلى أن نابتة المستقبل لا تبشر بهبات فطرية أعظم مما أحرزنا. غاية ما أفهم أن الرقى الذى وصلنا إليه إنما هو ثمرة الجد والاختراع ، وترقية شؤون الاجتماع ، واحتكاك العقول التى قدحنا زنادها ففجرت منابع الثروة ، وأرشدت إلى مناهج الصنعة ، وتبادل المنفعة. هذه كلها أمور لا أكاد أتصور أن للوراثة الشخصية فيها أثرا. أمامنا التاريخ حافلا بأخبار الأمم التى أخضعت العالم وملكت أقطابه، ثم دالت دولها ، وعفت معالمها. فإذا تسامحنا وقلنا : إن الحوادث وحدها هى التى هوت ببعض الأمم إلى الحضيض ، فلا يسوغ لنا أن نتحكم ونقول : إن القوى التى أخذت بيد الأمم الأخرى إلى معارج الرقى إنما هى وراثية . كل ما صادف طعنا فى النشوء فى الأمور العقلية نجده موجها إلى الأمور الدينية والأدبية . فالثقة وسلطان الدين فينا أضعف مما كانا على عهد الإصلاح اللوثيرى أيام مارتن لوثر كنج . زد على ذلك أن الحرية قد خرج بمدلولها طلابها عن الحدود المرعية حتى صارت شرودا وفوضى.

إذا وقفت على هذين المذهبين فى صحة وراثة العادات عرضنا عليك مسألة لا غرو فى أنها تحتاج إلى دراسة ، وهى ما تحققت وراثته من الصفات الكاملة فى الإنسان والخيل وكلاب الصيد. فالإنسان يرث بالمحتد نفسا كريمة نبيلة ، وأصائل الجياد تورّث ذراريها طيب الخلق وسرعة الجرى ، وكلاب الصيد تحتفظ ذراريها بمميزات فى الصيد والقنص.

فهذه أمور يستدل بها الفريق الأول على صحة وراثة العادات ، ويؤولها الفريق الثانى بأن الموروث هنا ليس صفة كسبية ، بل الموروث حسن تكييف الأعضاء ، واستعدادها لأداء وظائفها على الوجه الأكمل إذ ليس لها غُنية عن التمرين والممارسة. على أن هذه الممارسة إنما هى تمرين الغرائز التى تحتويها العادات.

ومجمل القول أن العادة وراثية باعتبار عناصرها المكونة لها وكسبية باعتبار ضم هذه العناصر بعضها إلى بعض ، كالسلعة المصنوعة من جملة مواد أولية ، ميزتها الصنعة ، وألفت بين أجزائها تأليفا مناسبا لإرادة الصانع ومبلغ علمه وذوقه. فالبانى يجمع إلى بنائه صخرا وآجرا وبلاطا ، وحديدا وأسمنتا ، وخشبا وزجاجا ، ثم ينسقه قصرا فخما يبدى فيه ما أوتيه من حسن الذوق ، وليس بينه وبين الكوخ الحقير من فرق إلا فى أوجه النسب ، وكيفية الهندسة والبناء والمواد الحديثة التى استعملت فى بنائه.

obeikandl.com